◘قَالَ المصَنِّفُ :

" المرْتَبَةُ الثَّالثَةُ : الإِحْسَانُ ، أركانهُ : ولَهُ رُكْنٌ واحِدٌ ؛ كَمَا في الحَدِيْثِ : " أن تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؛ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ".

والدليلُ : قولُهُ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وقولُهُ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ [الشعراء:٢١٧:٢٢٠] .

وقولُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١] " .

📖 الشَّرْحُ :

الإِحْسَانُ : ضِدُّ الإِسَاءَةَ .

● قَالَ الرَّاغِبُ : الإِحْسَانُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهما : الإِنْعامُ إِلى الغَيْرِ ، وَالثَّانِي : إِحْسانٌ فِي فعْلِه ، وذلِكَ إِذا عَلمَ عِلْمًا حَسَنًا ، أَو عَمِلَ عَمَلاً حَسَنًا [(١)] .

● قَالَ الجُرْجَانِيُّ : الإِحْسَانُ – لُغَةً – : فعلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ مِنَ الخَيْرِ [(٢)] .

---

(١) " تاج العروس " (٣٤/٤٢٣) .

(٢) " التعريفات " (ص:١٢) .

● وفي الشَّرْعِ : هو كَمَا جَاءَ في الحَدِيْثِ : " أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؛ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " ؛ فهو على مرتبَتَيْنِ :

◘ المرتبَةُ الأُولَى – وهي الأَعْلَى – : " أن تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ " :

وهذه هي مرتبةُ المحبةِ والمراقبةِ ؛ فالعبْدُ يُرَاقِبُ اللهَ – سبْحَانَهُ وَتَعَالَى – في أحوالِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ ؛ فَيَشْعُرُ ؛ كأنه يَرَاهُ ، وكُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لا يُرَى في الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ يَسْتَشْعِرُ العبد كأنه يَرَاهُ .

فإذا علم العبدُ أنَّ اللهَ شهيدٌ يَعْلَمُ أفعالَهُ ، وَيَرَى أحْوَالَهُ ؛ اسْتَحْيَا أَنْ يَقُولَ قولاً ، أو يفْعَلَ فِعْلاً يُغْضِبُهُ ؛ سواءٌ أمامَ الناسِ ، أو في الخَلْوَةِ .

● مراقبةُ اللهِ في الخَلْوَةِ أَصْعَبُ عَلَى النَّفْسِ :

لأَنَّهُ في العَلَنِ (في الغَالِبِ) يَتَصَنَّعُ الإِنْسَانُ ؛ كَيْ يَظْهَرَ في صُورَةٍ طيبَةٍ ؛ خاصة أمامَ أهلِ الصلاح ، ولكِنَّ الأَهَمَّ : المراقَبَةُ في السِّرِّ ، وهو يجْلِسُ بمُفْرَدِهِ في بَيْتِهِ ، ولا أحَدَ يَرَاهُ ، والبَابُ مُغْلَقٌ عَلَيْهِ ؛ فمِنَ الممْكِنِ أَنْ يَفْعَلَ أيَّ شيءٍ ؛ لأنه لا أَحَدَ يَرَاهُ مِنَ البَشَرِ ، وهنا يأتي الإحْسَانُ ، وتَتَحَدَّدُ مَرْتَبَتُهُ ؛ هل سيتَعَامَلُ كأَنَّهُ يَرَى اللهَ ؛ فيَسْتَحْيِي أَنْ يَتَلَفَّظَ بِلَفْظَةٍ لا تُرْضِيْهِ ، أو يَرَى شيئًا محرمًا لا يرضِيْهِ ، أو يَعْمَلَ عملاً محرمًا ؛ فَهُنَا سَتَظْهَرُ دَرَجَةَ إيمانِكَ ، أَمَّا من يظهر أمام الناس بصورةٍ طيبةٍ ، وعندما يخلو بنفسِهِ يَقْتَرِفُ المحرمات ، أو يَتَعَامَلُ مع أهْلِ بَيْتِهِ مُعَامِلةً سَيِّئَةً تَنُمُّ عن سوءِ خُلُقٍ ؛ فهذا لم يحقِّقِ الإِحْسَانَ .

● قَالَ الشَّافِعِيُّ : أشدُّ الأعْمَالِ ثلاثةٌ : الجُودُ من قلَّةٍ ، والوَرْعُ في خَلْوَةٍ ، وكلمَةُ الحَقِّ عند مَنْ يُرْجَى ويُخَافُ [1] .

◘ المرتبةُ الثانيةُ : " فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فإنَّهُ يَرَاكَ " :

الذي لا يستطيع أن يحقق المرتبة الأولى ، ويَسْتَشْعِرُ مَعْنَى : (كأنَّهُ يَرَى اللهَ) ؛ فيستطيع أن يحقِّقَ المرتبةَ الثانيَةَ ، وهي " أنَّهُ يَرَاهُ " ؛ فَيَقِيْنًا اللهُ يَرَاكَ ؛ فَهَذِهِ المرتَبَةُ هي " مرتبَةُ الخَوْفِ " ؛ فالأولى : مرتَبَةُ الحُبِّ والمراقبة ، والثانيَةُ : الخَوْفُ مِنَ الله ؛ فإذا اسْتَشْعَرَ العبْدُ ذلك (يقينًا) ؛ فلن يَقْرُبَ المحرماتِ التي تغضبُ ربَّ الأرضِ والسموات .

والمرتبة الأولى هي الأعلى ، ويدخل فيها (أيضًا) الخوف ؛ لأن العبادة لا تصح إلا بركنيين – كَمَا ذكرنا قبل ذلك – وهما : كمال الحب وكمال الخوف والذُّل ؛ فلا تَصِحُّ العِبَادَةَ بالحُبِّ فقط ، ولكن لابد معه الذُّلُّ والخوفُ ، فلا يَصِحُّ أن تَقُولَ : أنا أحبُّ الله ، وأنت لا تخافُهُ ؛ لأَنَّ هذا ادعاءٌ ؛ فلو أحببتَهُ ما أغضبتَهُ ؛ فكَمَالُ محبَّتِك له أن تخافَهُ وتتذللَ لَهُ ؛ لأنك عبْدٌ في ملْكِهِ ؛ فلا يصِحُّ أن تتعامل معه إلا أنك عَبْدٌ له ، وهو مولاك وسيِّدُك ؛ فلابد أن تَتَذَلَّلَ له ، وتخَافَهُ ، ومع كَمَالِ حُبِّك له ، فهو يَسْتَحِقُّ المحَبَّة من كلِّ وجْهٍ .

والذي يعِيْنُكَ على الإِحْسَانِ : معرفَةُ فَضْلِهِ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

---

(1) " صفة الصفوة " (١/٤٣٥) .

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] .

والله – تَعَالَى – مع جميعِ عبادِهِ بعلْمِهِ وإحاطَتِهِ معيَّةً عامَّةً ، أما المعيَّةُ في هذه الآية ؛ فهي المعيَّةُ الخاصَّةُ لعبادِهِ المتقين المحسنين ، يرْعَاهُم ويكلَؤُهُم على وجهِ الخصوص .

❍ الإحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ أَنْوَاعٌ :

● فمِنْهُ : الإِحْسَانُ بالمَالِ :

فَتُخْرِجُ الزَّكَاةَ المفروضَةَ عليكَ ، ثُمَّ بعد ذلك إذا رأيتَ محتاجًا ، وأنت تملِكُ مسَاعَدَتُهُ ؛ تُسَاعِدُهُ ، وتُنْفِقُ عَلَيْهِ ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] ، وحَثَّ رسولُ اللهَ ﷺ أصحابَهُ على الأَنْفَاقِ في أَكْثَرَ مِنْ حَدِيْثٍ ؛ كَمَا قال لِبَلالٍ ﷺ : « أَنْفِقْ بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا » (١) ، وعَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ : قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ تُوكِي فَيُوكَى عَلَيْكِ » (٢) .

● ومنهم مَنْ يُحْسِنُ إِلَى النَّاسِ بالكَلِمَةِ :

أعطاهُ الله – تَعَالَى – لِسَانًا طَيِّبًا يَعْرِفُ : كَيْفَ يَدْخُلُ للقُلُوبِ ؛ فإذا رأى

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في " الشُّعَبِ " (١٢٨٣) ، والطبرانيُّ في " المعجم الكبير " (١٠٢٥) ، وهو في " الصحيحة " (٢٦٦١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٤٣٣).

شخصًا غاضبًا يُكلِّمُهُ كلمةً طيبةً ، ويُهدِّئُ من غضبِهِ ، وينصحُهُ ، ولا يَتَرَكُهُ حتى يَهْدَأَ ، وهذا من تمامِ الإِحْسَانِ إلى العِبَادِ – الذي يَتَرَكُهُ البُعْضُ ! بحُجَّةِ أنَّهُ مُنْشَغِلٌ – .

فإذا مَنَّ اللهُ عليك بإعطائِكَ لسانًا عليمًا تستَطيعُ به إقناعَ الناس ، أو مساعدتهم في إزالة مشاكلهم وهمومهم بالكلمات الطيبة التي ترقِّقُ قلوبهم ، وتصبِّرُهُم على ابتلاءاتهم ؛ فافْعَلْ ؛ فقد يجعلك الله سببًا في إزالة الهمِّ والغمِّ عن العباد.

والذي لا يملك المالَ ، وليس عنده القدرةُ عَلَى الإِصْلاح بين الناسِ ، ولكِنَّ اللهَ جعلَهُ في مكانةٍ يستطيعُ من خلالها خدمةَ المسلمينَ ؛ فَلْيَفْعَلْ ، ولا يَتَوَانَ في خدمتهم .

● فمن أعظَمِ أَنْوَاعِ الإِحْسَانِ إلى النَّاسِ : دعوتهم إلى دينِ اللهِ :

فأيُّ مساعدةٍ تفعلُهَا للمسلمين ؛ فهذا مِنَ الإِحْسَانِ ؛ فيمكن أن تخدمهم بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان ، أو بالكلمة الطيبة – كما ذكرنا – ؛ لكن أعظم خدمةٍ تفعلها للمسلمين على الإطلاق : دعوتهم إلى دين الله ؛ فهذا من أعظم أنواع الإحسان ؛ لأنَّ كلَّ الذي ذكرناه أمورٌ دنيويةٌ ، وابتلاءاتٌ قد تكون سببًا في تكفير خطاياهم ، وحتى لو عاشوا في فقرٍ ؛ فيُصَبِّرون أنفسَهُم أنهم سَوْفَ يَدْخُلُون الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة ، وكل المشاكل نهايتها بنهاية وجودهم في الدُّنْيَا ، ولن تُلازم صاحبَهَا ، ولن تُسَبِّبَ له شَقَاءً في

الآخرة.

● فإذا استعملك اللهُ في الدَّعْوَةِ إليه :

وكُنْتَ سَبَبًا في إزَالَةِ جَهْلِ العِبَادِ ، ودعوَتِهِم إلى اللهِ ، وتَقْرِيبِهِمْ منه ، وتعريفِهم دينَهُم ، وتعلِيمِهمُ الحَلال والحرامَ ، وجعْلِهُمْ على أرضٍ صلبةٍ ؛ كي يعبدوا الله على بصيرة ؛ فإذا ماتوا كانوا من أهل الجنة ؛ فهذا أعلى أنواع الإحسان الذي تفعله لهم ؛ شريطَةَ أن تكون مخلصًا ؛ فأنت نفعْتَهُمْ في آخرتهم ، ونَفْعُ الآخرةِ لا يعادِلُهُ نَفْعٌ ؛ لذلك قلْتُ : إنَّ أفضل عَمَلٍ في الدنيا : الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ – سبحانه وتعالى – ؛ لقولِهِ – تَعَالَى – : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

◘ قَالَ المصَنِّفُ :

" الأَصْلُ الثَّالِثُ :

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النُّبُوَّةِ . نُبِّئَ بـ (اقْرَأْ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ " .

📖 الشَّرْحُ :

فلابد من معرفة النَّبِيّ مُحَمّدٍ ﷺ ، ومعرفة ما كان يدعو إليه ، وكيف كانت حياتُهُ ، وكيف جاهَدَ في اللهِ حقَّ جهاده ؛ كي تصِلَ هذه الدعوة إليك ، ولتعلِمَ كيفَ كانَ من حين ميلاده ، وهو مُبْتَلىً ؛ فقد وُلِدَ يتيمًا ، ثم ماتَتْ أُمُّهُ ، ثم أخذَهُ جدُّهُ ، ومات هو أيضًا ، ثم عمُّه ، ثم خديجة زوجتُهُ ، وغير ذلك من معرفة أذى المشركين له ولأصحابه ؛ فكان يُعَانِي أشدَّ المعاناةِ في الدُّنْيَا من أَجْلِنَا ، ويَقُولُ : أُمَّتِي أُمَّتِي – في الآخِرَةِ – ، وجميعُ الأنبياءِ من أوَّلِ آدَمَ إلى عيْسَى عليه السلام ، سَيَقُولُونَ : نَفْسِي نَفْسِي ؛ كما في حديثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيْلِ ؛ فمِنْ شدَّةِ الكَرْبِ وأهوالِ يوم القيامة ؛ سيقولون ذلك ؛ فالأنبياء أنْفُسُهم يخافون في ذلك اليوم ، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو مَنْ يَقُولُ : أَنَا لها ، وسَيَذْهَبُ ، ويَسْجُدُ تحت عَرْشَ الرَّحمن ؛ فيَفْتَحُ اللهُ عليه من المحامِدِ ؛ فيسألُ اللهُ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ الخلائِقِ ، وأيضًا : يَتَشَفَّع لأمتِهِ ([1]) .

فالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جاهد ، ورأى العناء والعذاب الذي ما رآه أحدٌ لمدَّةِ ثلاثةٍ وعِشْرين عامًا ؛ حتى يَصِلَ لنا هذا الدين ، ويخرجنا من الظلمات إلى النُّورِ ، وينقِذُنَا من جهنم ، ويدخلنا الجنة في الآخرة – بإذن الله – .

([1]) وذلك كلُّهُ ثابتٌ في حديثِ الشَفاعةِ الطويلِ ؛ المخرَّجِ في " الصَّحِيْحَيْنِ " (البخاري برقم : ٣٣٤٠ ، ومسلم برقم : ١٩٤– ٣٢٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

ونحنُ نعلم أنَّ الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكان يصَلِّي ويتَضَرَّعُ إلى الله – دومًا – من أجلنا ([1]) ، وكان ينشُرُ الدَّعْوَةَ ، ويحمِلُ الهَمَّ على مَدَارِ عمُرِهِ الشَّريفِ كُلِّه ؛ فجزاه الله عنَّا خير الجزاءِ .

○ مُعْجِزَاتُ النَّبِيِّ ﷺ :

وهي كثيرة (جدًّا) ، وأعظَمُهَا وَأَجَلُّها : القرآنُ الكريمُ ، وهو كلام الله تبارك وتعالى .

● ومنها : معراجُهُ إلى ربِّه ليلة الإسراء والمعراج ؛ فقد أتى له جبريلُ عليه السَّلامُ ، وهو نائمٌ في الحِجْرِ في الكَعْبَةِ ؛ كَمَا في " الصَّحِيْحَيْنِ " ([2]) من حديثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ؛ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ

([1]) وَبَوَّبَ النَّوَوِيُّ في " شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمٍ " بَابًا بِعُنْوَان : " بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ، وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ " ، وفيه روى مسلمٌ في " الصحيح " (برقم : ٢٠٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: " يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ " .

([2]) رواه البخاريُّ (٣٤٩) ، ومسلمٌ (١٦٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ .

مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ جِبْرِيلُ : لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ، قَالَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ : فَفَتَحَ ، – قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قَالَ أَنَسٌ – فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ

الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِيَّ، كَانَا يَقُولاَنِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ»، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ : رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ؟ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ " .

ومن هنا تَبْرُزُ أهميَّةُ الصلاةُ ومكانتُهُا وعظيْمُ قدرِهَا عند اللهِ – تَعَالَى – :

○ أهميَّةُ الصَّلاةِ :

أعْظَمُ شعيرةٍ على الإطلاق من شعائرِ الإسلامِ بعد قَوْلِ : " لا إله إلا الله " ، وهي أول ما يحاسب عليه العَبْدُ ، وتَارِكُ الصَّلاَةِ وَقَعَ في حكمه خلاف شديدٌ

بين أهل العلم؛ فهناكَ من يُكفِّرُه ، وهناك من يُفسِّقُهُ ، ويَقُولُ : إِنَّهُ مُرْتَكِبٌ كبيرةً من الكبائر .

فتاركُ الصلاةِ على خطرٍ عظيمٍ ؛ لأنه يَبْعُدُ (جدًّا) أن يكون هُنَاكَ إنْسَانٌ يَقِيْنُهُ صحِيْحًا ، ثم هو يَتْرُكُ الصَّلاة ؛ لذلك أخذ بَعْضُ العلماءِ الذين يُكفِّرون تارك الصلاة الأحاديثَ – الواردة في ذلك – عَلَى ظاهرها ، مثل قولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » [1] ؛ فأخذوا لفظ (الكُفْرِ) على عمومِهِ ، ولم يفصِّلُوا فيه ؛ سواء أكان تاركها جحودًا ، أو تكاسلاً ؛ كقول طائِفةٍ من العلماء الآخِرِيْنَ ، رغم أنَّ علماء السنة أجمعوا – في غير الصلاة وسائر أركان الإسلام – على أنه إذا ترك المسلم شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة جحودًا ؛ فهذا كفرٌ ، وإذا تركه تكاسلاً كان مرتكبًا لذنْبٍ عظيمٍ ، أو كبيرةٍ من الكبائِرِ ، ولكن في الصلاة والحج والصيام والزَّكَاةِ تَنَازَعُوا ؛ فمنهم من ذَهَبَ أنه ليس في الصَّلاة جحودٌ ، أو تكاسلٌ ؛ فمن تركَهَا كَفَرَ ؛ لظاهِرِ الأَدِلَّةِ ، وَهَذَا قولٌ للحنابلة

([1]) رواه أحمد (٢٢٩٣٧) ، وابن ماجه (١٠٧٩) ، والترمذيُّ (٢٦٢١) ، والنسائيُّ (٤٦٣) ، وابن أبي شيبة (٣٠٣٩٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ . وقال الألبانيُّ – في تحقيق السُّنَنِ – : " صحيحٌ " . وهو في " صحيح الجامع " (٤١٤٣) .

([1]) ، فقد اعتبروا تارك الصلاة كافرًا ؛ لأنه ترك أعظم شعائر الإسلام على الإطلاق ، والجمْهُورُ عَلَى خلافِ ذلك ، وهذه مسألةٌ مَبْسُوطَةٌ في كُتُبِ الفِقْهِ .

● والمقْصُودُ : أن تَعْلَمَ أنَّ الذي لا يُصَلِّي على خطرٍ عظيمٍ :

لأنَّ الذي يَتْرُكُ الصلاةَ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُقِيْمَ أوامِرَ اللهِ – تَعَالَى – يَبْعُدُ أن يَصُومَ عَلَى الوَجْهِ الذي يُرْضِيْهِ ، ويَحْفَظَ لِسَانَهُ ، وبَصَرَهُ ، وفَرْجَهُ ، ولا يأكُلَ أموال الناس بالباطل ، ويَبَرَّ والديْهِ ؛ فَمِنَ الصَّعْبِ أن يأتي بهذه الحُقُوقِ ، ويأتي بهذه الأَوَامِرِ عَلَى الوجْهِ الذي يُرْضِي اللهَ ، وهو تَارِكٌ للصلاةِ ! فَلَنْ تراه حافظًا لحدودِ اللهِ في كلِّ شيء ؛ لأَنّ الذي يُضَيّعُ الصَّلاةَ – وهي أعظَمُ الشعائِرِ – ؛ فما دونها أَوْلَى أن يُضَيّعَهُ ، وبسبَبِ ذلك كفَّرُه بعضُ العلماء ، وقالوا : إذا كان يُضيّعُ الصلاة ؛ فهل سيحافظ على الحقوق الأُخرى ؟! وكذلك الذي يُصَلِّي ويترُكُ ؛ لا يستطيع أن يأتي بكلِّ هذه الأوامر ، ويحافظ على حدود الله ؛ لأن الشَّيطان اسْتَزَلَّهُ .

● ولكن هنا سُؤَالٌ : لماذا فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا الصَّلاةَ ؟

ابتداءً ؛ لابد أن نقف عند حدودِ الأدبِ مع الله ، ونُقَدِّمَ قولَهُ – تَعَالَى – : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] ؛ لكن أرجو من كل أُمٍّ

([1]) وفي " اعتقاد الإمام أحمد " لأبي الفضل التميمي (ص : ١٢٠) : " وَكَانَ لَا يكفر أحدًا من أهل الْقبْلَة بذنب كَبِيرًا كَانَ أَو صَغِيرًا إِلَّا بترك الصَّلَاة ؛ فَمن تَركهَا ؛ فقد كفر وَحل قَتله ؛ قَالَه ابْن حَنْبَل ".

أن تَجْلِسَ مع ابنها الذي لا يُصَلِّي ، وتسألَهُ هذا السؤال قبل أن تعَلِّمَهُ حُكْمَ تارك الصلاة ، ولا تأمُرْهُ بعُنْفٍ ، وأن لا تقُولَ له : إذا لم تصلِ ستدخُلِ النارَ ، أو : إنَّ العلماء تُكفِّرُ أو تُفَسِّقُ تارك الصلاة ، ولكن أودُّ أن تخاطبَهُ بخطابِ العقل الذي يخاطَبُ به الشباب – الآن – ؛ فَتَقولَ لَهُ : هَلِ اللهُ يحتاجُ إلى صلاتِكَ ؟ وهَلِ اللهُ يحتاجُ إلى أحدٍ ؟ فهو الغنيُّ ، خَلَقَ الخلق ، وكان اللهُ ، ولم يكن شيئٌ قبلَهُ ؛ فَخَلَقَ العِبَادَ ، والملائكةَ ، والجنَّ ؛ فكان بأسمائه وصفاته قبل الخَلْقِ ؛ فهو الغنيُّ ، والعَلِيُّ ، والأَعْلَى ، والوَاحِدُ ، والقدوسُ ، والسَّلامُ ، والمؤمِنُ ، والمهَيْمِنُ ؛ فهو الله لا يحتاجُنَا في شيءٍ إطلاقًا .

○ إِذَنْ ؛ لماذا أَمَرَنَا بخمسِ صَلَواتٍ في اليوم ؟

فكان يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَنَا نُصَلِّي مَرَّةً وَاحِدَةً في اليوم ، أو لا يأمُرَنَا بالصلاة من الأصل ، أو يجعَلَنَا نُصَلِّي مرَّةً في الصباحِ ، ومرَّةً في الليل ، أو يجعلَنَا نُصَلِّي مرَّةً واحدةً في الصَّبَاحِ ؛ فَنُصَلِّي فيها سَبْعَةَ عَشَرَ رَكْعَةً ! فهو لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ، ولا يفعلُ بعذابِنَا شيئًا ؛ إِنْ شكَرْنَا ، وأيضًا : تسألُهُ : هل اللهُ يريدُ أن يُعَذِّبَكَ ؟!

فمثلاً : أنت (الآن) نائِمٌ ، أو تُذَاكِرُ دُرُوسَكَ ، ثُمَّ يُؤَذِّنُ المؤذِّنُ ؛ فلابُدَّ أن تَقُومَ للصلاة ، وتتركَ ما أنت فيه ؛ فلماذا يجعلُكَ اللهُ تَقُومُ لصلاة الفجر ، وأنت نائمٌ خاصَّةً في الشتاء ، والجوُّ باردٌ – جدًّا – ؛ فجعلك تَتْرُكُ الفِرَاشَ

الدَّافِئَ ؛ كي تتوضَّأَ ، وتُصَلِّيَ ، وكان يمكن أَنْ يجعل صلاة الفجر صباحًا – في الساعةَ العاشِرَةَ – مَثَلاً – ؟ فلماذا كلُّ هذا ؟!!

◙ والجوابُ :

● أولاً : لأنَّ العبدَ لا يستقيمُ ، ولا تستقيمُ أحواله إلا بتحقيق العبودية لله ، ومن تمام العبودية : الذلُّ والانكسارُ بين يدي الله ، واستجابة أمرِهِ ، عَلِمْنَا الحكمَةَ من الأمر أم لم نَعْلَمُ .

● ثانيًا : لا يوجد أحدٌ يحافظ على شيءٍ ، ولو حتى في الأمور الدنيوية إلا ويكون تعبٌ فيه ؛ لذلك تَرَى أنَّ أكثر نسبَةِ طلاقٍ تقع في الطبقات المُتْرَفَةِ ! لأنَّ الأَبَ هو من اشترى لولدهِ المنزلَ ، والسيَّارَة ، وأعطاهُ المال ؛ فلم يَتَعَبْ لكي يحافظ على زواجهِ ؛ لذلك يأخُذُ قَرَارَ الطَّلاقِ بِسُهُولَةٍ ، وَتَسيُّبٍ ! وهذه طبيعَةُ البَشَرِ ؛ فكلُّ شيءٍ يأتي بِسُهُولَةٍ يذهَبُ بسهولةٍ ؛ حتى العِلْم كان السلف يحرصُون على طلبِهِ ، ويَبْذُلُون الوقت والجُهْدَ في تحصيلِهِ ؛ فكانوا يحافظون عليه ؛ لأنه أَتَى بِشِقِّ الأَنْفُسِ ؛ فكَانُوا يُسَافِرُون المسافات الطويلة والأيام الكثيرة على الإِبِلِ ؛ حتى يتعلَّمُوا حديثَ واحدٍ ، واليوم جميعُ الكُتُبِ أمامَنَا في المكتباتِ ، وعلى الحاسِبِ الآليّ ، ولكِنْ زَهِدْنَا فيه ، ولا أَحَدَ – إلا القليل – مَنْ يَبْحَثُ عَلَى العِلْمِ الشَّرعيّ .

فينبغي أن نُعلِّمَ أولادَنَا هذه المعاني ، وأن يُقِيْمُوا الصَّلاةَ ؛ كما أمر اللهُ – تعالى – ؛ فالنَّبِيُّ ﷺ رَأَى رجلاً يُصَلِّي ؛ فقال له : « ارْجِعْ فَصَلِّ ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ » [(١)] ؛ فالصَّلاة التي يُصليها معظمنا ؛ اللهُ أَعْلَمُ بها ، ولكن إذا صلَّى العبدُ كَمَا أمَرَ اللهُ ؛ فيصعب أن تَرَاهُ يَكْذِبُ ، أو يَسْرِقُ ، أو يَغْتَابُ ، أو يَأْكُلُ أموالَ الناس بالباطل ، أو يعُقُّ والديه ، أو يظلِمُ أحدًا ؛ فسَتَرَاهُ مستقيمًا ؛ فمن يُجاهِدُ ؛ كي يصلِحَ صلاتَهُ ؛ سيكون ذلك سببًا في إصلاح دينه كلِّه .

- ثالثًا : أنَّ اللهَ – سبحانَهُ وتَعَالَى – خَلَقَ الإِنْسَانَ بجسدٍ وروح ؛ فالجسد يستقيم بالطعام والشراب والنَّوْمِ .

- **ولكِنْ بِمَ تستقيم الرُّوحُ ؟**

لا تستقيم بأيِّ حالٍ من الأحوال ، ولا ترتاحُ ، ولا تسْكُنُ إلا بالاتصال بخالقها ؛ فمهما فعل الإنسانُ للجسد من إطعامه أحسن طعامٍ ، ولبس أحسن الثياب ، ونَعِمِ بصنوف النعم ، بدون اتصالٍ بخالقِهِ تموت الرُّوح ، وإن كان الإنسان حيًّا ؛ كما تراهم يَنْتَحِرُونَ في أوربا وأمريكا وغيرها من الدول ؛ فلماذا ينْتَحِرُون رَغْمَ أنهم يملكون الجمال والمال والحضارة والتقدم ، وكلَّ أنواع النعيم ؛ فإذا نظرت إلى شوارعهم ؛ فكأنك تمشي في جنةٍ على الأرض ، وليس عندهم مشاكلُ ؛ لا في السَّكَنِ ، ولا في الزَّوَاجِ ، ولا في اللبس ؛ فهم يلْبَسُون

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٥٧) ، ومسلِمٌ (٣٩٧) .

ما يحلو لهم ؛ إذن لماذا ينْتَحِرُونَ ؟ لأنهم يُسْعِدُون الجسد فقط ! فيأكلون ويشربون ، ويخرجون ويلبسون ؛ فأسعدوا الجسَدَ أَنْ يَنْطَلِقَ ، ويَعِيْشَ ، ويَتْنَفَّسَ الهواءَ النَّقِيَّ ، ويَرَى المناظِرَ الجميلة ، ولكنه لَنْ يستقيم بدون سعادة الروح ، ولن تسْعَدَ الرُّوحُ إلاَّ باللهِ ؛ لذَلِكَ هُمْ ؛ إِمَّا يَنْتَحِرُون ، أو يصابون بالاكتِئَابِ !!

- **سعادَةُ الرُّوحِ لا تَكُونُ إلاَّ مَعَ اللهِ :**

والصلاة سببٌ في سعادَةِ الرُّوحِ ؛ لذلك جعلها اللهُ خمسَ مرَّاتٍ في اليوم ؛ لأنه العليم الخبير الذي خلَقَنا ، ويعلم ما يصلِحُنَا ؛ فتبدأ الصلاة بالفجر ، ثم يمرُّ سَبْعَ ساعاتٍ ؛ فَقَبْلَ أن تَتَعْبَ الرُّوحُ ؛ تأتي صلاة الظهر ؛ فيتصل مرة أُخرى بربه ، ثم بعد الظهر ينشغل الإنسانُ ؛ فالمرأة في بيتها ، والرجل في عمله ؛ فتأتي صلاة العصر ، ثم المغرب ، ثم العشاء ، وهكذا تظَلُّ الروح متصلةً بخالقها ؛ فلما أمرنَا اللهُ أن نقف بين يديه ؛ فهو ليس في حاجة إلينا ؛ فهذا فضلٌ منه ، وإحسانٌ حتى تستقيم الروح ، وتأخذ غذاءها ؛ فنحن نغذي الجسد ونزيِّنُهُ ، ولكن نغفل عن الروح التي لا تسعد إلاَّ بالاتصال بالله عن طريق الصلاة – ابتداءً – ؛ فهو العليم الخبير بما يصلِحُهَا ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] ؛ فالله هو من خلقك ، ويعلم ما الذي يجعلك تستقيمُ ؛ فتجِدُ الولَدَ يلعب بالألعاب . ويذهب إلى المقهى ، ويفعل غير ذلك ، ولكنه غيرُ سعيدٍ ؛ لأنَّ روحَهُ لا يمكن

أن تستقيم ؛ إلاَّ بالاتصال بالله ، ولو استقام بدونِ اتصالٍ باللهِ ، وسعِدَ ؛ فهذا من تلبيس إبليس له ، وفتنةٍ من الله ، ثم بعد ذلك يصابُ بالهم والنكد ، وتتعثَّرُ أمورَهُ ؛ لأَنَّ العقوبات قد تَنْزِلُ على المسلم في الدنيا قبل الآخرة ، وهذه هي الحكمة من أنَّ الله جعل الصَّلَوات خمسًا ، ونسأل الله أن يُعِيْنَنَا على نُصْحِ أولادِنَا للمُحَافَظَةِ على الصلاة .

◙ قَالَ المصنِّفُ : " أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثلاثَ سِنِيْنَ ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالهِجْرَةِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَالْهِجْرَةُ : الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ ، وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا – إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا – فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٧ – ٩٩] ، وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦] "

.

الشَّرْحُ :

○ الإسْرَاءُ والمعْرَاجُ :

كانت هذه الرِّحْلَةُ قبل الهِجْرَةِ بثلاثِ سنواتٍ ، وهذا مَا رَجَّحَهُ كثيرٌ من أهل العلم ، ولكن هناكَ أقوالٌ أُخرى ، منها : أنها كانت قبل الهجرة بِسَنَةٍ ، وقيل : قبلها بأشهرٍ ، وقيل : قبلها بسَنَةٍ ونِصْفٍ ([1]) ، ولكن ما يُهِمُّنا أَنَّ الصَّلاة فرضت قبل الهجرة ، وكانت الصلاة في مكة ثنائيَّة ؛ فكان الظهر ركعتين ، والعصر والعشاء ، وبعد الهِجْرَةِ إِلَى المدِينَةِ أصبحت رباعيَّةً .

لقد هاجَرَ النَّبِيُّ محمدٌ ﷺ إلى المدِيْنَةِ بأمرٍ من الله – تَعَالَى – .

● ومعنى الهِجْرَةِ – لُغَةً – :

الهَجْرُ : ضِدُّ الوَصْلِ . هَجَرَ الشيءَ يَهْجُره هَجْرًا : تَرَكَه وأَغْفَله ، وأَعْرَض عَنهُ .. هَجَرَ الرجلُ هَجْرًا : إِذا تَباعَدَ ونأى ، وَقَالَ اللَّيْثُ : الهَجْرُ من الهِجْران ، وَهُوَ تَرْكُ مَا لَا يَلْزَمُكَ تَعاهُدُه [2] .

([1]) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « منهاج السنة » (٥/ ٦٦) : « فَإِنَّ الْمِعْرَاجَ كَانَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ » .

وقال الحافظ في « الفتح » (١/ ٤٦٠) : « وَالْإِسْرَاءُ كَانَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِلَا خِلَافٍ » .

ثم وقع الاختلاف في تحديد ذلك ؛ فقيل : كان الإسراء لخمس قبل الهجرة ، وقيل : قبل الهجرة بعام ، قال القاضي عياض : « والأشبه أنه لخمس » . (" الشفا " ١/ ٢٠٨) ، وقال ابن عبد البر وغيره : « كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران » .

([2]) " تاج العروس " (١٤/٣٦٩-٣٩٧) .

●● وفي الشَّرْعُ : هي تَرْكُ الوَطَنِ الذي بين الكفَّارِ ، والانتقالُ إلى دَارِ الإسلام [1] .

فالكفار لم يقبلوا أوامر الله – تعالى – ولا أوامر رسوله ﷺ ، وآذوه هو وأصحابه ؛ فأمَرَهُ اللهُ – سبحانه وتعالى – بالهجرة ؛ فذهب إلى المدينة ، ومكث فيها عَشْرَ سنينَ ، وكان قد مكث في مكة ثلاث عشرة سنة ، وهذه هي مدةُ بعثتِهِ ورسالتِهِ : ثلاثٌ وعِشْرُون سنةً .

● يجِبُ على العبد الحَرِيْصِ أَلاَّ يجلسَ في بلاد الكفر :

قال – تَعَالَى –: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾ [النساء : ٩٧–٩٩] .

● **سبب نزول الآية** ؛ كما رَوَاهُ البُخَارِيُّ في " الصَّحِيْحِ " [2] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ أنه قَالَ : كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا ، وَكَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْإِسْلَامِ ، فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ، فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ بِفِعْلِ بَعْضٍ قَالَ

---

(١) " التعريفات " (ص:٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٥٩٦).

الْمُسْلِمُونَ : كَانَ أَصْحَابُنَا هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ وَأُكْرِهُوا، فاستَغْفَروا لَهُمْ، فَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُم ﴾ إِلَى آخَرِ الْآيَةِ ، قَالَ : فَكَتَبَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ : لَا عُذْرَ لَهُمْ . قَالَ : فَخَرَجُوا فَلَحِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَوْهُمُ الْفِتْنَةَ ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الْآيَةَ [الْبَقَرَة: ٨] .

- وقوله : ﴿ إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ ، هذا إعذارٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – لهؤلاء في تَرْكِ الهِجْرَةِ ، وذلك أنهم لا يَقْدِرُونَ على التَّخَلُّص من أيدي المشركين ، ولو قَدَرُوا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ؛ قال مجاهدٌ ، وعكرمة ، والسديُّ : يعني : طريقًا .
- وقوله – تَعَالَى – : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي : يتجاوز عنهم بترك الهجرة ، و (عَسَى) مِنَ الله موجبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .
- وقوله : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ هذا تحريضٌ على الهجرة ، وترغيبٌ في مفارقة المشركين ، وأنَّ المؤمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عندهم مندوحةً[1] ومَلْجَأً يتَحَصَّنُ فيه ، وقال عددٌ من العلماء

---

(١) أرض واسعة وبعيدة

(المرَاغَمُ) : التحوُّلُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ ، وقال غيرهم : ﴿ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ يعني: متزحزحًا عما يكره ، والظاهر ، والله أعلم ؛ أنَّ (المُرَاغَمَ) : التمنُّعُ الذي يتحصَّن به ، ويراغم به الأعداء .

● وقوله : ﴿ وَسَعَةً ﴾ يعني : الرزق [(١)] .

فالذي يهاجِرُ اليوم إلى بلاد الكفْرِ ؛ ليس عنده سببٌ للهجرة ؛ فَتَرَاهُ يأخذ زوجته وأولادَهُ ، ويهاجر خارجَ بلاده ، وإذا قيل له : أنت مُسْلِمٌ ؛ فلماذا تقيْمُ في بلاد الكفر ؟ يقولُ لَكَ : نحن سنُقِيْمُ الشعائِرَ ، وهناك في هذه البلدِ جَالِيَةٌ ؛ فَيُبَرّرُ سَفَرَهُ إلى هذه البلاد ، وهو – في الحقيقةِ – يسافِرُ إلى بلدٍ ؛ الغالبُ عليها الكُفْرُ والفسادُ وضياعُ الدِّيْنِ ؛ فلا أذَانَ يُرْفَعُ فيها ، ولا تجِدُ شعائِرَ الدينِ ظاهرَةً ، ولا أحَدَ يستطيع أن يُظْهِرَ دينَهُ على الوجه الذي يُرْضِي الله – سبحانه وتعالى – ؛ فضلاً عن الفتن ؛ فالنساء تمشي في الشوارع كاسياتٍ عارياتٍ !! إلى غير ذلك من ألوانِ الفتنِ ، وصنوفِ الرَّزَايَا .

ولو فرضنا أن الذي سيُسَافِرُ عنده قوةٌ في دينِهِ ، وسيحافِظُ على الصلوات ، وأنَّ زوجتَهُ ستَلْبَسُ اللباسَ الشرعيَّ ، ولكن ماذا سيفعل في أولاده ؛ فالولد حينما يذهب إلى المدرسة ؛ سيكون كلُّ الذين معه في الدراسةِ كفارًا ؛ أفلا يخاف عليه – حينئذٍ – ؟!!

---

(١) " تفسير ابن كثير " (١/٥٢١-٥٢٢).

فإذا كنا في بلاد المسلمين ، ولا يستطيعُ الكثيرُ منا تربيةَ أولادِهِ ، بسبب مواقع التواصل ، وما فيها من فتنٍ وبلايا ؛ فكيف نُرَبّيْهِمْ في بلاد الكفر ؟!! أفلا تعقلون ؟!!

فلا يجوز السَّفَر إلى بلاد الكفار إلا لضرورةٍ قصوى ؛ كشخصٍ عنده مرضٌ شديدٌ ، وليس لمرضِهِ علاجٌ في بلده ؛ ففي هذه الحالة يجوز له السفرُ للعلاجِ.

أو شخصٌ عنده تجارةٌ – مثلاً –، ونحن نعلم أن أكثرَ السِّلَعِ (اليوم !!) مستوردةٌ من الخارج ؛ فهو في هذه الحالة يحتاج إلى السَّفَرِ ، وكذلك أصحابُ المصانع والشركات يشْتَرُونَ جُلَّ قِطَعِ الغيار من الخارج ، وكذلك أصحابُ شركاتِ الأجهزة الطبيَّةِ يستورِدُونها مِنَ الخارجِ ؛ فهؤلاء يجُوزُ لهم السَّفَرُ ؛ شريطةَ أن يحافِظُوا على الصلاة ، وعندهم القُدْرَةُ على غضِّ البَصَرِ ؛ لأنه ليس من أجلِ العملِ يباعُ الدينِ ، وإذا شَعُرُوا الفتنَةَ ؛ ففي هَذِهِ الحالةِ لا يجوز لهم السَّفَرُ ، ويبحثون عن أيِّ عملٍ داخل بلادهم ؛ فهذا أَوْلَى وَأَجْدَرُ .

وأيضًا ؛ نحن نَسْمَعُ من يقول : أَنَا سَوْفَ أسافِرُ ؛ كي أتعلمَ ! وأقول : إذا كان الذي تريد تعلُّمَهُ غَيْرَ موجودٍ في بلاد المسلمين ؛ فيجوز لك السَّفَرُ لتعلُّمِهِ ؛ بالضوابط التي ذكرناها ، ولكن إذا كان ما تريد أن تتعلَّمَهُ موجودًا في بلاد المسلمين ؛ فما الذي يجعلك تسافِرُ ؟ فالذي يسافِرُ ؛ كي يأخذ – مثلاً – (ماجستير أو دكتوراه) ؛ فهو سوف يمكث مدَّةً طويلةً ؛ فكيف يأمَنُ على نفسِهِ طُوَالَ تواجدِهِ في هَذِهِ البلاد !

إنَّ أكثر الذين سافروا فَسَدُوا وانحرفُوا ؛ لذا نقول : السَّفَرُ إلى بلاد الكفار ، والاحتكاك بهم أمرٌ خطيرٌ ليس سهلاً .

● قال – تَعَالَى – : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦] .

فلا يجْلِسُ الإنْسَانُ في مكانٍ يُشْرَكُ فيه باللهِ ! بحجَّةِ أنه لا يستطيعُ الانتقالَ إلى بلدٍ أُخرى !!

◘ قَالَ المصَنِّفُ : " قَالَ الْبُغَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا ، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ (١) .

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) " (٢) .

الشَّرْحُ :

---

(١) سبب النزول هذا لم يُنقل عن البغوي نقلاً صحيحًا ! ففي " تفسيره " (٢/٢٧٢) قال : " قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآيَةَ، نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ وَلَمْ يُهَاجِرُوا ".

(٢) رواه أبو داود (٢٤٧٩) ، وأحمد (١٦٧١) ، والنسائيُّ في " الكبرى " (٨٦٥٨) ، والدَّارميُّ (٢٥٥٥) ، وأبو يعلى (٧٣٧١) عن مُعَاوِيَة، وَعَبْد الرَّحْمَنِ بْن عَوْفٍ، وَعَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وقال الألبانيُّ : صحيح .

هذا الحديثُ المذكُور مختلفٌ في تصحيحِهِ ؛ كما قال الإمامُ الخطابيُّ ([1]) . ولكن إذا افترضنا صحته ؛ فمعنى قولِهِ : (لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ) ؛ ففي ذلك قولان للعلماء :

- القول الأول : لا تنقطع الهجرة من مكة إلى المدينة إلى أن تقوم الساعة.
- القول الثاني : قيل : لا تنقطع الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين ، وهذا الأرجح ؛ لأننا كما بيَّنا – الآن – أن المسلم الذي يعيش في بلاد الكفر لا يستطيع أن يقيم شرع الله فيها ؛ سواء في نفسه أو في من حوله ؛ ففي هذا الحالة لابد له أن يهاجر ويتركها ، وهذا معنى الحديث .
- وقيل : المقصود بالهجرة هجرة المعاصي : لقولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » [(٢)] ؛ فترك المعاصي نوعٌ من أنواع الهجرة ؛ فالهجرة لها مفهومٌ واسعٌ ، وليست قاصرةً (فقط) على الهجرة من بلاد الكفار ؛ فبمفهومها الشامل أن تهجر كل معصية ؛ سواء كانت المعصية الجلوس في بلاد الكفار مع عدم إقامة شرع الله ؛ فتهجر هذه البلاد ، أو هجرة المعاصي ؛ فمثلاً : شخصٌ يحب أصدقاءه ، ولكنهم يمنعوه من تعلُّم دينِهِ ، والاستقامة فيه ، وهم سببٌ في

([1]) (" معالم السنن "٢/٢٣٥) ؛ قال : " وإسنادُ حديثِ معاوية ؛ فيه مقالٌ " .

([2]) أخرجه البخاريُّ (١٠) .

انتكاستِهِ وانحرافهِ ؛ كلما أخذ خطوةً للأَمَام ثَبَّطُوه ؛ فلو أنَّ هذا الشخصَ مؤمنٌ إيمانًا صحيحًا ؛ فلن يستجيب لهم ، ولابد أن يهجر ما نهى الله عنه ، والله نهاه أن يصاحب من يفتنُهُ في دينِهِ ؛ لقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ : " مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ : إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ : إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً " [1] ؛ فالصديق السَّيِّءُ ؛ سواء كان من الأهلِ ، أو من الأصحاب ، أو من الجامعة ، أو من المدرسة إذا تعاملت معه ، ووجدته سببًا في انتكاستك ، واقترافك المعاصي ؛ فلابد من الابتعاد عنه ، وهذا نوعٌ من أنواع الهجرة ؛ لأنك هجرتَ ما نهى الله عنه ، ولك أجرٌ عظيمٌ على ذلك .

فكلما كان حبك لهذا الصديق كبيرًا ، وكنت مرتبطًا به ، وتربيْتَ معه ، ولا تذهب ، ولا تأتي إلا معه ؛ لكن تركتَهُ لله ؛ لأنه سببٌ في بُعدك عن طريق الله ، وأنت تريد أن تَعْلُوَ في دين الله ، وترتقي فيه ، وهو يريد الدنيا ؛ فلو أنت صادقٌ ، وحققت منزلة الإحسان في مراقبة الله – عزَّ وجلَّ – ، وتعْلَمُ أنه يراك ؛ فَسَيُحْدِثُ ذلك خَوْفًا في قلبك ، وستَهْجُرَهُ ، وستَسْتَعِيْنُ باللهِ على ذلك .

([1]) أخرجه البخاريُّ (٥٥٣٤) ، ومسلمٌ (٢٦٢٨) .

واعلم أنَّ مَنْ ترك شيئًا من أجْلِ اللهِ عوَّضَه الله خيرًا منه ؛ فلَيْسَ هناك أحدٌ ترك شيئا لله ؛ إلا وأبدله خيرًا منه ، وهذا شيءٌ مشاهَدٌ ، ونرَاهُ واقعًا عمليًّا في حياتنا .

وكما ذكرنا أنَّ السفر لا يكون إلا للضرورةِ وبِضَوَابِطَ ؛ كما قال رسُولُ الله ﷺ : « أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ ؟ قَالَ : « لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا » [1] ؛ أي : لا يجْلِسُ المسْلِمُ في مكانٍ قريبٍ من الكافر ؛ حيث يرى بعضهما نارَ بعضٍ ؛ فلا يكون بينهما قربٌ ؛ فهذا حديثٌ ثابتٌ عن رسول الله ﷺ مع الآيات القرآنية التي ذكرناها التي تُبيّنُ أنه لا يجُوزُ الإقامةُ في بلاد الكفر.

مِنَ الضَّرُورَاتِ التي يجُوزُ فيها السَّفَرُ إلى بلاد الكفر مَنْ يُسَافِرُ إليها ؛ ليدْعُوَ النَّاسَ إلى اللهِ ؛ كالذي يُسْافِرُ إلى أمريكا ، أو أوربا للدَّعوة هناك ؛ فهذا يجُوزُ له السَّفَر ؛ فكثيرٌ من الدُّعَاة اليوم يُسَافِرُون إلى المرَاكِزِ الإسلامية ؛ فيَجْلسُون مدَّةً مِنَ الزَّمن للدَّعْوَةِ ؛ فالنَّبِيُّ ﷺ كان يُرْسِلُ الصَّحَابَةَ إلى بلادِ الكُفْرِ ؛ ليَدْعُوَ النَّاسَ ويُعلِّمُهُم .

---

(1) رواه أبو داود (٢٦٤٥) ، والترمذي (١٦٠٤) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وقال الألبانيُّ : " صحيحٌ " . " الإرواء " (١٢٠٧)

◘ قَالَ المصَنِّفُ : " فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ ، مِثلِ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ .

وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ، بَعَثَهُ الله في النَّاسِ كَافَّةً ، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ .

وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ – ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠ – ٣١] ".

الشَّرْحُ :

● النَّبِيُّ ﷺ بَشَرٌ :

فلابد أن يكون عند المسلم تَوَازُنٌ ؛ فلا إفراطَ ولا تفريطَ ؛ فلا إفراط في المحبة ؛ فتُنزِلُ النبيَّ ﷺ منزلة غير منزلتِهِ ؛ فتجعله شريكًا لله في ربوبيته ، وتعتقد

أنه يمكن أن يجلبَ لك نفعًا ، أو يرفع عنك ضرًّا ؛ كما يفعلُ الجُهَّال اليوم ؛ فيقفون على قبرِهِ ، ويسألونَهُ حاجتهم ؛ فإذا اعتقد العبد أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ينفعه أو يضره ؛ فهذا خروجٌ من الملَّةِ ؛ لأنَّ اللهَ – سبحانه وتَعَالَى – بيده الأمر كله ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] ؛ فلا يكشف الضُّرَّ ، ولا يجلبُ الخير إلا الله ؛ فلو أنت أنزلت النبيَّ ﷺ هذه المنزلة ، وجعلته في منزلةِ الإلَهِ بأنَّهُ يكشِفُ الضُّرَّ ، ويرفَعُ الهَمَّ ، ويأتي بالرِّزْقِ ، ويَرْزُق الولَدَ ؛ فجعلته شريكًا لله ، وهذا كفرٌ بواحٌ .

فَمَا بالك اليوم بالناسِ الذيْنَ يَلْجَأُونَ لقُبُور الأولياء – التي هي دُونَ النَّبِيِّ ﷺ – ؛ كالبدويِّ والسَّيِّدَةِ ، وهم ليسوا أنبياءَ ؛ فهذا شركٌ يقع في الأمة ؛ فالمرأة تَذْهِبُ إلى الأَضْرِحَةِ ، وتُصَلِّي ، ولكنها تَطُوفُ حَوْلَ القَبْرِ ، وَتَسَأَلُهُ أَنْ يُعْطِيَهَا وَيَرْزُقَها ، ويجْعَلَ ابْنَتَهَا تُنْجِبُ ، وَتَتَكَلَّمُ مَعَ صَاحِبِ القَبْرِ ، وتَدْعُوه ؛ كأنَّهُ اللهُ !!!

فلابد أن نعلم – كما ذكرنا – أنَّ النبيَّ ﷺ بشرٌ ؛ فلا يملك لنفسِهِ نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، وإن كان هو سيدَ البَشَر وأفضلَهُم ، ولكن ليس له شيءٌ من صفات الألوهية ولا الرُّبوبيَّة ، ولكن له أكملُ الصفات البشرية ؛ فهو ليس ربًّا يجيبُ الدَّعْوَة ، ولا إلهًا ؛ فيجب علينا ألّا

نفرط في محبته ؛ فنُنزله منزلةَ الإله ، ولا نفرِّطُ في محبتِهِ ؛ حتى إذا سألتَ كثيرًا من الناس عن اسمه بالكامل ، لا يكاد يعلمُ أحدًا – إلا من رحم الله – .

إنَّ النبيَّ ﷺ مات كأيِّ بَشَرٍ ؛ لقولِهِ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠] ؛ فهو ماتَ ، ودُفن في قبرِهِ إلى أن تقوم السَّاعَةُ .

◙ قَالَ المصَنِّفُ : " وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه : ٥٥] ، وقَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا – ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح : ١٧ – ١٨] ، وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١] ، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] " .

📖 الشَّرْحُ :

وهنا تَكَلَّمَ المؤلِّفُ عَنِ : البَعَثِ :

وهذا أمْرٌ يقينيٌّ أنَّ الناسَ سوف يَبْعَثُونَ ، والدَّلِيْلُ : قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه :٥٥] . وقولُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

إِخْرَاجًا (١٨) ﴾[نوح:١٧-١٨] ، والآياتُ كثيرةٌ في أنَّ البَعَثَ لا رَيْبَ فيه ؛ فسَوْفَ نُبْعَثُ يوم القيامة ، ونقف بين يدي الله نحاسَبُ على كلِّ كبيرة وصغيرة ، وغير ذلك من الأهوال ؛ فهناك مَنْ سيَقِفُ في الشَّمْسِ ، وَمَنْ سَيَقِفُ في ظلِّ عَرْشِ الرحمن ، وَسيُضْرَبُ الصِّرَاطُ على ظَهْرَي جَهْنَم ، وتَتَطَايَرُ الصحفُ ؛ فمِنَ الناس مِنْ يأخُذُ كتابَهُ بيمينه ، وهم السُّعَدَاءُ ، ومنهم من يأخُذُهُ بشِمَالِهِ ، وهم الأشْقَيَاءُ ، وهناك (أيضًا) قنطْرَةُ المظالم ، وسيقتَصُّ من بعضنا البعض ، ثم بعد ذلك إلى جنَّةٍ ، أو إلى نَارٍ ؛ فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يُهَوِّن ويخففَ عَلَيْنَا هذه الأَهْوَالَ .

فكثرةُ الشُّبُهات والشَّهَوات جعَلَت كثيرًا من المسلمين – إلا من رحم الله – لا يفكرون فيها ، ولا يعلمون عنها شيئًا ؛ فأصبحت القلوبُ قاسيةً ؛ قال – تعالى – : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤] ؛ فالآن تجلس مع الناس ؛ فلا تراهم يتَّعِظُون ، ويدْفِنُون الميت ، ثُمَّ يضحكون ، ويتكلمون في أمور الدنيا ، وكأن شيئًا لم يكن ؛ فلا يفكرون في الآخرة ، ولا في الوقوف بين يدي الله ، وهذا من الشقاء والتعاسة ؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عن الأهوال الأخروية ؛ فألهتْهُمُ المعاصي والدُّنْيَا الفانيةُ !!

والناسُ سوفَ يحاسَبُون على أعمالهم إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌّ ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

● أما من يُكذِّبُ البعْثَ ؛ فَهَذَا كَافِرٌ قولاً واحدًا ، والدليل ما يلي :

١ – قوله – تَعَالَى – : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧].

٢– وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) ﴾ [الأنعام:٢٩–٣٠] ؛ فالكافر يعتقد أن هذه الحياة يعيشها ، ويمرح فيها ، ويفرح ، ويلعب ، ثم بعد الموت لا يُبعث ، فالذي يعتقد ، ويُصَدِّقُ أنه لن يُبعث ؛ فهو كافرٌ .

٢ – وقوله – تَعَالَى – : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ [المطففين:١٧–١٠] .

فكل هذه آيات تدلُّ على أن الذي يُكَذِّب بالبعثِ في النار.

٤ – وقوله – تَعَالَى – : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

فالذي يكُذب ، أو يجحد مسألةً واحدةً من مسائل الدين التي هي معلومة من الدين بالضرورة ، وجاءت في كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ يكفر ؛ مثل

من ينكر البعث أو الحساب أو عذاب القبر أو الجنة أو النار ، أو غير ذلك من مسائل الدين .

- ونرُدُّ على من يُنْكِرُ البَعْثَ ، ونَقُولُ :

إنَّ الله هو مَنْ بدأ الخلق ، ومن بدأه قادرٌ على إعادته ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ، وأَنَّ إعادة الخلق أهونُ مِنِ ابتدائه ، وكلُّ هذا هيّنٌ على الله ؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرض والسماء .

- فهل بدايةُ الخلق أصعبُ أَمْ إعادَتُهُ ؟

فهل إذا أتيتَ بشيءٍ كان غير موجود ، ثم أوجدْتَهُ ؛ فهل هذا أصعبُ أم إعادتُهُ مرَّة أخرى ؟ مثل الذي اخترع الطائرة ؛ فهل اختراعها من البداية أصعب ، أم إذا اصدمت بشيءٍ ، وأُعيْدَ تصليحُهَا ؟ لا شكَّ أن إعادة تصليحها أسهلُ ، وهذا على مستوى البَشَرِ ؛ فكيف بربِّ البَشَرِ ؛ فالله لا يصعب عليه بداية الخلق ولا إعادته ؛ فهو لا يعجزه شيءٌ ؛ فكل هذه صفاتٌ منفيَّةٌ عنه ، ولكن الإنسان الجاهل بربه يُفكِّر بعقلِهِ ؛ فإذا وافقتِ المسألةُ عقلَهُ قَبِلَهَا ، وإذا لم توافِقْهُ أنكَرَهَا ، وهذا صنيعُ الكفار وأهلِ الأهواء والبدع في كل زمانٍ ومكانٍ !!

كان الأنبياء يُنْذِرُون أقوامهم بالبعث والنار ؛ فكان رَدُّهم : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات:١٦–

١٧] ؛ فيقولون : إنَّ آباءهم الذين ماتوا من آلاف السنين وأصبحوا ترابًا وعظامًا يبعثون مرة أُخرى ؟! فبدءوا يقِيْسُون الأمر بعقولهم ؛ فأنكروا البعث ، وهذا ما يحدثُ (الآن) من بعضِ المنحرفين ، الذين يَظْهَرُون (أحيانًا) على القنوات الفضائية !! ممن ينكرون البعث ؛ فهؤلاءِ كذَّبُوا بشرع الله ؛ لأنهم قَاسُوا بعقولهم الغبية ، ولكن هلِ اللهُ الذي خلَق هذا الكون يُعْجِزُه أن يعيد ، ويَبْعَثُ البَشَرَ مرة أُخرى ؛ فهل يُعْجِزُه شيئًا في الأرض والسماء ؟ فانظر كيف دبَّرَ الله الكون ؟ وَخَلَقَ السموات والشمس والبحار والجبال والقمر والكواكب والنجوم والشجر والدواب ؛ فمَنِ الذي خلق هذا ابتداءً ؟ وكيف خلقَهُ ؟ وكيف دبَّرهُ وسيَّرَهُ ؛ فلا الشمس تسبق الليل ، وغير ذلك ؛ فمَن الذي دبَّرَ كلَّ ذلك ، وقام عليه ؟ هو اللهُ القيُّومُ ، ولكن هذه قلوبٌ مطموسةُ البصيرةِ .

◙ قَالَ المصَنِّفُ :

" وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ﴿وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣] ، وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوح إلى محمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ

الطَّاغُوتِ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا ﴾ [النحل: ٣٦] ، وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – : مَعْنَى الطَّاغُوتِ : مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ " .

📖 الشَّرْحُ :

● اللهُ – تَعَالَى – أرسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِيْنَ ومُنْذِرِيْنَ للنَّاسِ ؛ فأرسلهم برحمتِهِ وفضلِهِ ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء :١٦٥] ، وفي كل زمانٍ ومكانٍ بَعَثَ اللهُ رُسُلاً وأَنْبَيَاءَ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ؛ فكانوا يُنْذِرُونَ النَّاسَ ، ويُبَشِّروهم ؛ فيُنْذِرُوهم بالنَّار ، ويُبَشِّرُوهم بالجنة ، وبيَّنوا لهم الأسباب الموصلة لذلك ، ويذكروهُم بالآخرة ، وأوَّلُ الرُّسُل نوحٌ عليه السلام ؛ كَمَا أنَّ أوَّلَ الأنبياءِ : آدم عليه السلام ، وآخرهم النَّبِيُّ محمَّدٌ ﷺ ، والدليلُ على ذلك ؛ قول الله – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء:١٦٣].

◙ قَالَ المصَنِّفُ :

" وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ ، إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا اله إلا اللهُ .

وَفِي الْحَدِيثِ : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » ، وَاللهُ أَعْلَمُ " .

الشَّرْحُ :

افْتَرَضَ اللهُ على العبادِ : الكُفْرَ بالطاغوت ، والإيمانَ بِهِ :

● قَالَ ابْنُ القيم – رحمه الله – :

" وَالطَّاغُوتُ : كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ ، أَوْ مَتْبُوعٍ ، أَوْ مُطَاعٍ " (١) .

والطاغوت – لغةً – : صيغةٌ مبنيةٌ للكثرة والسعة ؛ لأنها من طغى يطغى طغيانًا ؛ أي : يجاوزُ الحَدَّ ؛ قولُهُ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١] ؛ أي : لمَّا زَادَ الماء عن الحدِّ ؛ فكلُّ ما عُبِدَ من دون

(١) " إعلام الموقعين عن رب العالمين " (١/٤٠) .

الله هو طاغوتٌ ، مثل من يَعْبُدُ الأميرَ ، أو الحاكِمَ ، أو العَالِمَ ، ولا يكون طاغوتًا ؛ إلاَّ إذا رَضِي بهذه العبادة ؛ فعيسى عليه السلام عُبد من دون الله ، ولا يُقَالُ عليه : طاغوت ؛ لأنه تَبَرَّأَ من ذلك ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾ [المائدة:١١٦–١١٧] ، وقال : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢] .

ومعنى (يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ) : يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ: وَمَنْ يَتَعَظَّمْ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَيَأْنَفْ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ لَهُ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ([1]) .

ومن ذلك : أَنْ يُقَدِّمَ قولَهُ على قولِ الله – تعالى – ، وقولِ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم ، وقد وَرَدَ في حديثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : " يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ ،

([1]) " تفسير الطبري " (٧٠٨/٧) .

فَطَرَحْتُهُ ؛ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ ؛ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة: ٣١] ؛ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا ، فَقُلْتُ : إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ ، فَقَالَ : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ ؟ » قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » (١) .

فعديٌّ كان نصرانيًّا ، ثم أسلَمَ ، ولكنه قَبْلَ أن يُسْلِمَ دخل على النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَسَمِعَ هذه الآية ؛ فقال له : نحْنُ لا نعبد الأحبارَ ، ولا الرُّهبان ؛ فتَصَوَّرَ أنَّ العبادة هي السجودُ والركوعُ فقط ! ولكن النَّبِيَّ ﷺ عرَّفَهُ أنه إذا أحل لك أيُّ شخصٍ شيئًا حرَّمَهُ الله ، وأنت استجَبْتَ له في ذلك ؛ فهذه عبادةٌ له ، أو حرَّم شيئًا أحلَّه اللهُ ، وأنت استجَبْتَ له ؛ فهذه (أيضًا) عبادةٌ له ؛ فعلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ معنى العبادةِ ، وهي الطاعَةُ .

● العِبَادَةُ : اتِّبَاعُ إِنْسَانٍ من دون الله في تحريم ما أحلَّ الله ، أو تحليلِ ما حرَّم الله :

(١) رواه الترمذيُّ (٣٠٩٥) ، والطبرانيُّ (٩٢/١٧) . قال الترمذيُّ : " هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، لَا نَعْرِفُهُ ؛ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ حَرْبٍ ، وَغُطَيْفُ بْنُ أَعْيَنَ : لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الحَدِيثِ " . وهو في " الصحيحة " (٣٢٩٣) .

فإذا رأيتَ مَنْ يُحَلِّلُ لك شيئًا الله حرَّمه ، وأنت تعلم حرمتَهُ ، ومع ذلك تطيعُهُ في ذلك ؛ فقد عبدتَهُ من دون الله ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَ حاتِم بن عديٍّ أنَّ العبادة اتِّبَاعُ إِنْسَانٍ من دونِ اللهِ في تحريم ما أحلَّ الله ، أو تحليلِ ما حرَّم الله ؛ فالتحليلُ والتحريمُ خاصٌّ بالله – وحده – ؛ لأنه تشريعٌ ، ولا يكون التشريع ؛ إلا لَهُ – تَعَالَى – ولرسولِهِ ﷺ – لأنه يبلغ عن الله بوحيٍ منه – ، وما دون الله ورسولِهِ ؛ فلا ، ولكِنْ إذا أَتَى شخصٌ ، وقال لك : هذا حلالٌ وهذا حرامٌ ، بدون دليلٍ على ذلك ، وأنتَ اتَّبَعْتَهُ في ذلك ، فأحللتَ وحرَّمْتَ ؛ كنتَ قد عبدْتَهُ من دون الله ، وهذا أمرٌ غايةٌ في الخطورة ، وقد يقع فيه الكثيرُ ، وهم لا يشعرون !!

● وكمثالٍ : لقد لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ ([1]) .

وجماهير العلماء على تَحْرِيْمِ النَّمْصِ ، ثم يأتي دَاعيةٌ ، ويقولُ بغير ذلك ؛ فتسمع بعضُ النِّسْوَةِ كلامَهُ ، فَتَنقَادُ لَهُ ، وهي تَعْلَمُ الحقَّ ولا تَعْمَلُ بِهِ ؛ فهي بذلك عبَدَتْهُ ؛ لأنها أطاعَتْهُ فيما حرَّمَ اللهُ .

إنَّ إبليس – لعنه الله – ، وهُوَ رَأْسُ الطاغوتِ ؛ لأنه عُبِدَ من دون اللهِ ، وهو راضٍ ؛ بل يَسْعَى لذلك هو وحِزْبُهُ ؛ فهو مَتْبُوعٌ ومُطَاعٌ ، وَقَدْ عُبِدَ ؛ قال –

([1]) رواه مسلمٌ (٢١٢٤) (١١٩) عَنِ ابْنِ عُمَرَ .

تعالى – : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس:٦٠] ؛ أي : لا تطِيْعُوهُ .

وقال – سُبْحَانَهُ – : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وكل مَنْ دَعَا النَّاسَ إلى عبادَةِ نَفْسِهِ ؛ فهو طاغوتٌ ؛ كما يَفْعَلُ مشايخُ الطرقِ الصوفيةِ ، ومن وافقهم من الفرقِ الضالةِ !!

وَقَوْلُهُ : مَنْ دَعَا شيئًا من علم الغيب : قد سبق بيان أنَّ الغيب لا يعلَمُهُ إلاَّ الله .

● وَلَكِنْ ؛ هل مَنْ حَكَمَ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ؛ كَفَرَ ، وَخَرَجَ مِنَ الملَّةِ ؟

قال – تَعَالَى – : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] .

وقول الله – تَعَالَى – : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة :٤٥] .

وقول الله – تَعَالَى – : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] .

وهذه المسألَةُ تحتاجُ إلى مزيدِ تَفْصِيْلٍ ، ولكِنْ خلاصةُ القَوْلِ فيها : أنَّ من لم يحكم بما أنزلَ اللهُ (استحلالاً) ، أو هو يَرَى أَنَّ القوانِيْنَ الوَضْعِيَّةَ (أَفْضَلُ) مَنْ شَرَعَ الله ؛ فهو كافرٌ خارجٌ مِنَ الملةِ .

ولكِنَّ الحاكِمَ الذي يحكم بغيرِ ما أنزل الله ، وهو غيرُ مستحلٍّ لذلك ؛ فقد يكون بسببِ أن علماءَ (سُوءٍ) لبَّسُوا عليه الأَمْرَ ، أو أنه صاحبُ هَوىً ، أو أي سببٍ آخر ، وهو كان لا يَقْصِدُ تَنْحِيَةَ شرعِ اللهِ ، ولا يَرَى القوانين الوضعيَّةَ أفضلَ من شرع الله ، أو قد يكون بسببِ حبِّهِ للدنيا ؛ فخاف على منصبِهِ ؛ فلا نستطيعُ أن نكفِّرَهُ بذلكَ .

● فنَحْنُ لا نستَطِيْعُ أن نكفِّر مسلمًا ؛ إلا بدليلٍ :

وهذه هي المعركَةُ التي بَيْنَ أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ ، وبين الذين يكفِّرُون الناسَ ، ويَدَّعُون أنهم سلَفِيُّون ، ويَتَّهِمُون أهلَ السنَّةِ بالتُّهَمِ الباطلة ، ويَقُولُونَ : إِنَّنَا نُرِيْدُ المرَاكِزَ ، وهَذِهِ هي طريقَةُ أَهْلِ البِدَعِ إِذَا أَتَيْتَ لأحدهم بالأدِلَّةِ ، ولم تكن عِنْدَهُ إجابةٌ علميَّةٌ عليها ؛ طَعَنَ فِيْكَ واتهمَكَ !!

فبعضُ الطوائفِ يعتقِدُون أَنَّ مَنْ لم يكفِّرِ الحَاكِمَ ؛ فهو يُرِيْدُ السُّلْطَةَ !! ولكِنْ نحْنُ لم نُكَفِّرِ الحَاكِمِ ؛ لأنَّنَا لم نُقِمْ عَلَيْهِ الحُجَّةَ ، ولا نعْلَمُ ؛ لماذا يحكُمُ بغَيْرِ ما أنزلَ اللهُ ؛ فَلَيْسَ عندنا دليلٌ واضحٌ صريحٌ على كُفْرِهِ ؛ فَنَحْنُ نَرَى الحَاكِمَ أَمَامَنَا ، وهو يُصَلِّي ، والأَذَانُ يُرْفَعُ ، وهناك بعضُ أشياءٍ في المواريثِ والنكاحِ والطلاقِ يُحْكَمُ فيها بِشَرْعِ اللهِ ، وهناك أحكامٌ أُخْرَى لا يَحْكُمُ فيها بِشَرْعِ اللهِ ،

وهذا لا يجُوزُ بلا شكٍّ ؛ لأنَّ اللهَ – عزَّ وجلَّ – قال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة:٨٥].

● ولكِنْ هَلِ الحاكِمُ الذي لم يُقِمْ شَرْعَ اللهِ كاملاً نحكم عليه بالكُفْرِ ؟

لا نَسْتَطِيْعُ أَنْ نَحْكُمَ عليه بِذَلِكَ ؛ لأننا لم نجْلِسْ مَعَهُ ، ولم نَسْمَعْ منه ، ولا نعلمُ هل هو بذلك يَسْتَحِلُّ ذلك ، أو بسببِ ضَعْفِهِ ، أو جهلاً منه ، أو غير ذلك من الأسبابِ ؛ لذلك لا نستطِيْعُ أَنْ نُكفِّرَهُ ؛ فَنَحْنُ نُقِيْمُ شعائِرَ اللهِ ، ونرى الحكَّام – كما ذكرتُ – يُصَلُّون أمامَنَا ، ولَكِنَّنَا غَيْرُ مأَمُورِيْنَ أن نُنَقِّبَ على ما في قلوبهم ؛ أي نُنَقِّبَ هل الحاكمُ يُصلِّي نفاقًا أو رياءً ونحو ذلك ؟!! ؛ لأنَّ مَا فِي القُلُوبِ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ الله ؛ لذلك لا نَسْتَطِيْعُ أن نحْكُمَ عليه بالكُفْرِ ؛ إلاَّ إذَا اسْتَحَلَّ الحُكْمَ بِغَيْرِ ما أنزلَ اللهُ ، أو جحد حكم اللهِ ، أو استهزأ بأحكام الله ، ونحو ذلك .

● ولكِنْ ؛ هَلْ هَذَا الكَلاَمُ اجتهادٌ مِنِّي ، وليْسَ عليه دليلٌ ؟

كلاًّ كلاَّ ، فقد أجْمَعُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ عَلَى أَنَّهُ لا يجُوزُ تكفيرُ الحاكم الذي يحكم بغَيْرِ ما أنزلَ اللهُ ؛ إلاَّ بالشُّرُوطِ السَّابقةِ .

فقوله – تَعَالَى – : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ؛ فابْنُ عَبَّاسٍ حَبْرُ الأمة ، وتُرْجَمَانُ القُرْآنِ ؛ قَالَ : " إِنَّهُ لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ إِنَّهُ لَيْسَ كُفْرًا يَنْقِلُ عَنِ الْمِلَّةِ ..كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ " ،

وفي روايةٍ : " هِيَ بِهِ كُفْرٌ ، وَلَيْسَ كُفْرًا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ " (١) ، وهذا قَوْلُ ابْنِ عبَّاسٍ ، وَلَيْسَ قَوْلِي ؛ فالقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ أَشْخَاصٍ تخَالِفُ المَنْهَجَ ، ولكِنَّ المسألةَ أكبرُ من ذلك ؛ فالأدلة فيها تَفْسِيْرُ القُرْآنِ لحَبْرِ الأمةِ وأقوال العلماءِ الأكابرِ مِنَ السلف ، وهناك فتاوى للعلماء المعاصرين ؛ كابن بازٍ ، وابنِ عثيمين ، وغيرِهم ؛ فقد أَفْتَوْا بِذَلِكَ .

ومِنَ المعْلُومِ أنَّهُ إذا اختلف اثْنَانِ في شيءٍ ، وادَّعَى كلٌّ منهما أنه هو الصوابُ ؛ فلابد أن يأتي كلٌّ منهما بالدَّلِيْلِ ؛ لِيُبيّنَ صوابَهُ ، ولكِنْ يَشْتِمُ أحَدُهما الآخرَ ؛ فهذا لا يجُوزُ ، وليس هُناكَ أسْهَلَ من سوءِ الخُلُق ، والشتْمِ والسَّبِّ ، ولكِنَّ الأصْعَبَ أن تَتَحَمَّلَ ، وأَنْ تَصبرَ على خصْمِكَ .

وهَكَذَا كانَتْ تَدُورُ المناقَشَاتُ الفِقْهِيَّةُ بين أهلِ العلمِ ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ العُلَمَاءِ يَعْرِضُ أَدِلَّتَهُ بِغَيْرِ سَبٍّ أو انتِقَاصٍ !

ولكِنَّ صاحبَ الهَوَى مَهْمَا أَتَيْتَ لَهُ من أدلَّةٍ ؛ فلن يهتدي ؛ فقد طَمَسَ الله على قلبِهِ ، وعلى بصيرتِهِ ؛ لِذَلِكَ ؛ فَالشَّيْطَانُ يُحِبُّ البِدْعَةَ أَكْثَرَ من المعصيَةِ ؛ لأَنَّ صاحبَ المعصيةِ في الغَالِبِ يَعْلَمُ أنه على معصيةٍ ، وقد يرجِعُ إِلَى اللهِ وَيَتُوبُ ، ولكِنَّ المبْتَدِعَ ؛ فهو لا يَرَى أَنَّهُ عَلَى بدعةٍ ، ورجوعُهُ قد يكون صعبًا ؛ فهؤلاء الذين يُكفِّرون المسلمينَ قد أَخَذُوا هَذَا من الخَوَارِجِ !!

---

(١) رواه الطبريُّ في " التفسيرِ " (٨/٤٦٥) ، وابن أبي حاتم في " تفسيره " (**٦٤٣٤**) ، والحاكم (**٣٢١٩**) .

● أقول في الختامِ : إِنَّنَا نُرِيْدُ أن نَعْبُدَ اللهَ على بصيرةٍ ، ونُرْضِي ربَّ العالمين ؛ فنَحْنُ لا نُرِيْدُ مناصِبَ ، ولا جاهًا ، ولا دنْيَا ؛ فَنَسْأَلُ اللهَ أن يهديْنَا سواءَ السبيلِ .

ونسألُهُ – سبحانَهُ – أن يتوفَّانَا على الإيمانِ ، وأن يلحقنا جميعًا بنبيِّنَا محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .